الفصل 3

الدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية

من الطب إلى عالم الصناعة

مكَّن تحملُ محمد مسؤولية الشركة العائلية عبدالعزيزَ من إكمال دراسته، أما على الساحة السياسية فقد تدهورت العلاقات بين السعودية ومصر إلى درجة أن أَمَرَ ولي العهد الأمير فيصل عام 1961م بسحب الطلاب السعوديين من الجامعات المصرية، وفي العام الثاني أطاحت ثورة عبدالناصر بالنظام الملكي اليمني، وفي الحرب الأهلية التي نتجت عن ذلك دعمت السعودية الأسرة المالكة، ودعمت مصر الحركة الثورية المعارضة.

وعلى نحو متزايد سعت السعودية إلى التحالف مع الولايات المتحدة، وبدأت الحكومة بتوفير منح دراسية للطلاب السعوديين للدراسة في الجامعات والكليات الأمريكية، ويشرح عبدالرحمن الزامل ذلك: «كان هناك تحوُّل كبير؛ من الجامعات العربية إلى الجامعات الأمريكية، وفتحت الجامعات الأمريكية أبوابها لاستقبال الطلاب السعوديين، وكنت في عمر مناسب لأذهب مع الدفعة السابقة؛ للدراسة في مصر».

كان عبدالعزيز ما زال متشبثًا بحلمه في دراسة الطب، وقد تحدث إلى قريب له في الولايات المتحدة، فشجعه على التحدث مع المسؤولين في وزارة التربية والتعليم السعودية، وسرعان ما استجاب عبدالعزيز، وذهب إلى وزارة التربية والتعليم.

> بعد ذلك أرسلت الأوراق المطلوبة إلى الملحق الأكاديمي في نيويورك، وشجعني على تقديم طلب للحصول على المنحة، ولم أشاور أحدًا في عائلتي؛ لكوني في بريطانيا، وكانت أيام امتحانات.
>
> شملت المنحة المقدَّمة من الحكومة السعودية التكفل بكل نفقات السفر والتعليم والمعيشة، وكان أي سعودي حاصل على الشهادة الثانوية، بغض النظر عن مكان إقامته، مؤهلًا للحصول على منحة دراسية في الخارج، وفي خمسينيات القرن العشرين كانت كلمة الدراسة في الخارج تعني الدراسة في مصر، أما الآن، ونتيجة لسوء العلاقات بين البلدين، فتعني الدراسة في الولايات المتحدة. وفي مرحلة معينة كان عدد الطلاب الذين استفادوا من المنحة، ودرسوا في الولايات المتحدة

أربعة عشر ألفًا، فقد كان عرضًا مغريًا لا يمكنك رفضه، فخُيِّرت بين الدراسة في ولاية كاليفورنيا أو تكساس، وإذ كان لدي قريب يدرس هندسة النفط في كاليفورنيا، قررت أن أذهب إلى هناك.

قدَّم عبدالعزيز طلب الالتحاق بجامعة جنوب كاليفورنيا في لوس أنجلِس، فَقُبِل، ووصل إلى هناك عام 1963م. كان الوقت الذي أمضاه في بريطانيا لدراسة اللغة الإنجليزية مساعدًا له على التأقلم بسرعة مع تلك المرحلة الانتقالية، ويتذكر ذلك قائلًا: «أصبح الأمر أكثر سهولة»، لقد أعفيت من السنة التحضيرية التي تدرس فيها اللغة الإنجليزية، إذ كان على الطلاب السعوديين الالتحاق في هذه السنة لدراسة اللغة الإنجليزية، ولأنني درست اللغة في بريطانيا، فقد سمح لي على الفور بالالتحاق بمحاضرات الجامعة العادية.

تخلَّى الزامل عن حلمه بأن يصبح طبيبًا، عندما أدرك أن دراسة الطب في الولايات المتحدة كانت مختلفة، وأن المنحة التي تلقاها لا تشمل السنوات الإضافية التي سيدرسها للحصول على شهادة في الطب، ويشرح ذلك، فيقول:

في الولايات المتحدة عليك إكمال عدد من السنوات الجامعية قبل الالتحاق بكلية الطب، وبعدها يجب أن تكمل خمس سنوات إضافية في دراسة الطب. كانت المنحة تشمل فقط خمس سنوات من الدراسة، ولذلك قررت ألَّا أدرس الطب.

وبعد اتخاذ هذا القرار العملي اتجه إلى دراسة الهندسة الصناعية: «اخترت دراسة الهندسة الصناعية؛ لأنه تخصص جديد، وكانت الجامعات التي يتوافر فيها هذا التخصص قليلة، وقد أعجبني التخصص، وكنت من أوائل السعوديين الذين يحصلون على شهادة في هذا التخصص».

درس عبدالعزيز في أول سنتين الموضوعات الأساسية للهندسة، ومن ضمنها الرياضيات والرسم الهندسي؛ وبعد ذلك درس موضوعات تخصصية في الهندسة؛ «استفدت من الموضوعات التي درستها في المملكة المتحدة، واستطعت إنهاء دراستي والحصول على شهادتي الجامعية الأولى في أقل من أربع سنوات، ثم بدأت بالدراسات

العليا»، وبفضل تصميم عبدالعزيز وقدرته على التركيز، تمكَّن من الحصول على درجتي البكالوريوس والماجستير في الهندسة الصناعية خلال مدة المنحة البالغة خمس سنوات.

كان اختيار تخصص الهندسة الصناعية اختيارًا موفقًا؛ فلم يناسبه التخصص فحسب، ولكنه كان مناسبًا للمساهمة في تلبية حاجات المملكة العربية السعودية التي كانت تمر في تلك المرحلة بمنعطف مصيري في تاريخها، إذ شهدت سنوات السبعينيات من القرن العشرين المراحل الأولى الطموحة لتوجه السعودية نحو عصر التطور والتصنيع، وقد أتاح التدريب الذي تلقاه الزامل الفرصة له لكي يكون له دور رئيس في صياغة مستقبل بلاده؛ «لقد جعلني في المكان المناسب لنوع العمل الجديد الناشئ في السعودية، إذ بدأ الناس يتحدثون عن العمل الصناعي».

ومع ستينيات القرن العشرين ازداد عدد الطلاب السعوديين الذين التحقوا معه بجامعة جنوب كاليفورنيا، وكان من هؤلاء من سيعمل مع عبدالعزيز الزامل في المهمة العظيمة للتحوُّل الصناعي في بلدهم.

العالم الجديد والصداقات المؤثرة

كانت الحياة في السعودية مختلفة عنها في كاليفورنيا، ومختلفة كذلك عنها في المملكة المتحدة؛ فـ «في الولايات المتحدة كان التعليم يعني التدريب، أما في أوروبا فمعناه حصولك على فرصة تعليم نفسك بنفسك»، هذا ما قاله مدرس أمريكي لغازي القصيبي، الذي جاء هو أيضًا إلى الجامعة في بدايات ستينيات القرن العشرين.

كانت البيئة التعليمية في أمريكا أفضل بكثير من البيئة الدراسية في مصر، حيث كانت الفصول في الجامعات تكتظ بآلاف الطلبة، وأما في أمريكا فكان متوسط الطلاب في الفصل نحو ثلاثين إلى أربعين طالبًا؛ ولذا كان الطالب في أمريكا يلقى اهتمامًا أكثر من المدرس، وكانت الحياة في أمريكا أقل رسمية من الحياة في بريطانيا، ووفق ما يتذكر عبدالعزيز:

لقد أعجبت بانفتاح الشعب الأمريكي أكثر من الشعب الإنجليزي المحافظ، وكان من السهل فعل أي شيء؛ من الحصول على رخصة قيادة إلى الحصول على هاتف في المنزل، وكانت الحياة هناك أقل تعقيدًا.

وخلال السنة الأولى في جامعة جنوب كاليفورنيا سكن عبدالعزيز في الحرم الجامعي، وتشارك في الغرفة مع طالب يدرس الطب، فـ «لم أكن أملك سيارة أو رخصة قيادة، وكنت أريد أن أسكن بالقرب من الجامعة، وقد كانت هناك حديقة جميلة بالقرب منا، مزودة بتجهيزات وخدمات رياضية جيدة»، وفي السنة الثانية التحق أخوه حمد بالجامعة، فانتقل الاثنان للعيش في شقة صغيرة.

وعندما وصل عبدالرحمن إلى جامعة جنوب كاليفورنيا قادمًا من جامعة القاهرة؛ للحصول على شهادة الدكتوراه في العلاقات الدولية، انتقل الإخوة الثلاثة للعيش في شقة أكبر، ويبيِّن عبدالرحمن أن دراسته للعلاقات الدولية جاءت لتبنى على التدريب الذي حصل عليه في مجال القانون، آملًا «أن يحقق ذلك طموحه بأن يكون له دور مهم في نشر أهدافنا الوطنية من خلال صورتها العربية والإسلامية»، وانتقلوا إلى شقة أكبر مع وصول شقيقهم الرابع الذي كان يقربهم في العمر، «وآخر سنة دراسية لي كانت عام 1967م، وعندما وصل شقيقي الخامس، انتقلنا إلى منزل بالقرب من الحرم الجامعي، مدهون باللون الأبيض، وأصبحنا نطلق عليه لقب (البيت الأبيض)».

أصبح هذا البيت مركزًا اجتماعيًّا؛ إذ كان الإخوة يلتقون فيه مع أصدقائهم العرب والأمريكيين، وعن ذلك يتحدث عبدالعزيز:

كانت حياتنا الاجتماعية نشطة جدًّا، وكان لدينا كثير من الأصدقاء؛ منهم السعوديون والكويتيون وعرب آخرون وأمريكيون، وكنا نلتقي في بيتنا في عُطَل نهاية الأسبوع، وكنا أيضًا نستضيف الطلبة السعوديين الجدد، وغالبًا كانت معظم أوقات المذاكرة في المكتبة، فقد كنا قادرين على التقدم في الدراسة بصورة مُرضية، وتمكنّا من الاندماج التام في الحياة الجامعية.

تمكَّن الإخوة من إقناع أخيهم الأكبر محمد بأن يرسل إليهم تمويلًا إضافيًّا، وبحسب ما يقول عبدالعزيز:

كنا نحسب مقدار ما نحتاج إليه من المال للعيش في راحة، وقد تم ذلك بالاتفاق المتبادل، وكنا نطلب من محمد المال إذا ما احتجنا إليه لغرض محدد، إذ كان هو المسؤول، وكان يرسل لنا حصصنا من المال.

وكنا في العادة نرسل إليه رسائل، ولكنه لم يكن يفتحها؛ لأنه كان يعرف أن محتوى الرسالة هو طلبنا للمال! وكان يمازحنا، ويقول: إننا استثمار رديء، وكنا نجيبه بأننا: استثمار على المدى الطويل، وحقًّا كنا كذلك.

اشترينا أول سيارة لنا من قريبنا عندما تخرج، إذ كانت المنح التعليمية تكفي فقط لرسوم الدراسة والغذاء والسكن، وما إلى ذلك؛ فقد كنا بصعوبة نستطيع اقتناء سيارة، ثم تمكنّا من شراء سيارة قديمة من نوع بويك بعد أن أقنعنا أخي بإرسال المال إلينا، فقد كنا نذهب مع الأصدقاء إلى لوس أنجلس أو أماكن أبعد على الساحل الغربي، وصولًا إلى سان فرانسيسكو وأريزونا ولاس فيجاس.

كان عبدالعزيز مثل والده؛ يحب أن يقضي وقته مع أصدقاء متنوعين، وقد حدث أن علَّمه طالب أمريكي قوانين لعبة كرة القدم الأمريكية، فأصبحت هذه اللعبة شغفه، يقول عبدالعزيز: «كان من الصعب أن نتعلم أنا وإخوتي لعبة كرة القدم الأمريكية، ثم أصبح لي صديق يعلِّمني. في بداية الأمر كان إخوتي ينزعجون، عندما أشاهد لعبة كرة القدم الأمريكية، وكانوا يفضلون مشاهدة كرة السلة أو كرة القدم، إلى أن تمكنت من شرح قواعد اللعبة لهم، فأصبحوا هم أيضًا يشاهدون مبارياتها».

دعاه صديق أمريكي ذات مرة لقضاء أسبوع في مزرعة عائلته بالقرب من بحيرة تاهو:

ذهبنا أولًا إلى لاس فيجاس، وكان والد صديقي طيارًا مقاتلًا سابقًا، يمتلك طائرة صغيرة، وبينما ذهبت والدته بالسيارة إلى لاس فيجاس، ذهبنا نحن بالطائرة، فقلت لصديقي: «أخبر والدك بأنني لا أحب الطيران»، وعندما كنا في الطائرة كان يمازحني والد صديقي لخوفي من الطيران، وكان يقوم ببعض الحركات البهلوانية،

فأخبرته بأنني خائف حقًا، وعندما هبطنا في لاس فيجاس قلت له: «هذا يكفي، سأذهب إلى المزرعة بسيارة».

على الرغم من تجربة ركوب الطائرة، كانت المدة التي قضاها عبدالعزيز في الولايات المتحدة ثرية، فقد عرف المجتمع الأمريكي بعمق؛ واطلع على الحياة السياسية والثقافية فيه، ويتذكر ضاحكًا موقفًا طريفًا:

ولد أخي عبدالرحمن بعد ستة أشهر من ولادة أخي حمد؛ لأنهما كانا من أُمَّين مختلفتين، وكان هذا الأمر غريبًا في الولايات المتحدة؛ فقد كنا نعيش في المنزل نفسه، ولدينا السيارة نفسها، ولكن شركة التأمين كان لديها شك، وتساءلوا: كيف يمكن أن تكونا أخوين؟! ولحسن حظنا أن سكرتيرة الشركة كانت من أصول عربية، فشرحت لهم كيف يكون عبدالرحمن وحمد من أب واحد، ولكن ليس من أم واحدة.

وإضافة إلى استكشاف الغرب الأمريكي في مرحلة دراسة الزامل في الجامعة، كان الطلاب السعوديون المبتعثون يُمنحون تذكرة طيران ذهابًا وإيابًا سنويًا، فكان الزامل وإخوانه يستعملونها للذهاب إلى جبال لبنان في الصيف لمشاركة عائلتهم، يتذكر عبدالعزيز: «شجعنا والدي على قضاء الصيف معًا، فتمسكنا بهذا التقليد حتى بعد وفاته».

كانت تجربة عبدالعزيز الدراسية في المملكة المتحدة قيِّمة؛ إذ أمضى خلالها شهرين في الصيف لاستكمال تدريبه مع (أرامكو)، في قسم المشتريات الخاص بها في لندن، وفي وقت لاحق، عندما كان يدرس في جامعة جنوب كاليفورنيا، انضم إلى (برنامج أرامكو) مرة أخرى خلال إحدى رحلاته الصيفية إلى المملكة العربية السعودية. عقد هذا التدريب في رأس تنُّورة، حيث تعلَّم قضايا عدة، كالإنتاجية وإعداد الجداول، ويقول متذكرًا تلك التجربة: «لقد كانت تجربة مفيدة للغاية». وإذ تصادف أن تدريبه كان في شهر رمضان، فقد قرَّر أن يدرس أثر الصيام في إنتاجية العمال.

شجعني أستاذي على المتابعة، وقال: «امضِ قدمًا؛ فلماذا لا تكتب بحثًا عن هذا الموضوع؟»، كان من الصعب أن أجد مصادر، ولكنني وجدت أن بعض الخبراء قد

أجروا اختباراتهم على الفئران، وكنت أيضًا قادرًا على العمل الميداني ومقابلة زملائي الصائمين.

وجدت أن الإنتاجية ترتفع في الصيام بحسب نوع المهمة المراد إنجازها؛ فإذا كانت بيئة العمل قابلة للتحمُّل من حيث درجة الحرارة مثلًا، فإن الإنتاجية سترتفع حتمًا؛ لأنه عندما تكون صائمًا يزداد تركيزك مع مرور الوقت، وإذا كان العمل الجسدي ضمن قدرة الإنسان، فلن تتأثر الإنتاجية، وهكذا كان الأمر مشوقًا.

الصداقات المؤثرة

نجح عبدالعزيز في مجال الدراسة، وفي تكوين الصداقات أيضًا؛ وكان من أصدقائه كلٌّ من غازي القصيبي وعبدالرحمن السدحان، وخالد القصيبي، وعبدالوهاب عطار، وفايز بدر، وكذلك أمضى وقتًا في ممارسة الأنشطة اللامنهجية التي تمثَّلت في رابطة الطلاب العرب.

كانت تجربة الدراسة في كاليفورنيا ممتعة؛ لأنها أتاحت لي فرصة التفاعل مع عدد من الجنسيات المختلفة؛ فقرابة نصف الطلاب الذين عرفتهم كانوا عربًا، والأجانب الباقون من غير الأمريكيين كانوا من عشرين جنسية مختلفة، فقد كانت حياتي الاجتماعية نشطة، وكنا نتجمع في عيدي الفطر والأضحى بصورة دورية، وكان لدي أصدقاء يدرسون معنا، وكان بعضهم من دول الخليج كالكويت، ومن المغرب أيضًا.

كنا نشطين جدًّا في رابطة الطلاب العرب، خصوصًا في جانب التزامنا بالقضية الفلسطينية، وفي ذلك الوقت كان السعوديون هم المهيمنين على رابطة الطلاب العرب، ولم يكن للمال علاقة؛ فكنا المهيمنين؛ لأننا كنا الأغلبية.

كان رئيس الرابطة غازي القصيبي، الذي كان يدرس للحصول على درجة الماجستير في العلاقات الدولية من جامعة جنوب كاليفورنيا، «كان غازي أكبر مني سنًّا، وكانت مواعيد محاضراتنا مختلفة، وكانت علاقتنا في الرابطة مهنية جدًّا». وكان نائبا القصيبي عبدالعزيز الزامل وصديقًا آخر من المغرب، نجح في تسلم الرئاسة، وجاء بعده الزامل.

خصَّصت الرابطة جهودها لتعزيز فهم الأمريكيين للعالم العربي وللقضية الفلسطينية، ويتذكَّر عبدالعزيز أنه كان مع عدد من الطلاب السعوديين من المنبهرين ببلاغة وشعبية الرئيس المصري جمال عبدالناصر، الذي دعا إلى تأسيس جبهة عربية موحدة ضد إسرائيل، ولكن لم تنجح دعوة الرابطة من أجل نشر الوعي بالقضية الفلسطينية، ويعزو عبدالعزيز ذلك إلى تأثير الحركة الصهيونية في الإعلام.

لقد بدأت أفهم الحياة السياسية الأمريكية، وبالأخص النظام السياسي الأمريكي، وبدأت أرى بصورة أوضح ماهية العلاقة بين أمريكا والعالم العربي، وكيف تأثرت سياسة الولايات المتحدة بالمصالح الخاصة، ورويدًا رويدًا بدأت أدرك قوة الوسائل الإعلامية، وكيف تخدم بصورة قوية أغراضًا معينة، سواء بقصد أم من دون قصد، لقد بهرتني هذه الأمة العظيمة؛ الولايات المتحدة. لقد كانت المدة منذ اغتيال الرئيس الأمريكي كينيدي، قبل حرب فيتنام بخمس سنوات، مرحلة اضطرابات وترقُّب شديدين.

فعام 1967م وقعت حرب الأيام الستة الكارثية في الشرق الأوسط، وكنا نحن العرب نعتقد أننا سننتصر فيها، ولكن انسحاب الجيوش العربية سبَّب لنا صدمة شديدة، وقد أثَّر ذلك فينا نفسيًّا تأثيرًا سيئًا جدًّا؛ لقد كنا نستمع إلى أحمد سعيد، وهو يذيع الأخبار من إذاعة صوت العرب، وكنا ننقلها لأصدقائنا عن طريق الهاتف، ونظَّمنا احتجاجات كبيرة في أثناء الأزمة حتى في أوقات الاختبارات، وكنا شديدي النشاط، وقد كان هذا هو أيضًا موقف المملكة العربية السعودية؛ لأنها تساند القضية الفلسطينية سياسيًّا. حاولنا تجنُّب جميع القضايا التي تفرق بيننا نحن العرب، وركَّزنا في تلك القضية التي تهمنا جميعًا، وتوحدنا، وسعينا إلى شرح القضية الفلسطينية للأمريكيين، وقدَّمنا لهم الوجه الحقيقي للإسلام.

أبرزت الوسائل الإعلامية حرب الأيام الستة على أنها نصر كبير لإسرائيل، وفي أثناء إقامتي في لوس أنجلس نظمنا مظاهرة أمام ملعب رياضي كانت جولدا مائير ستلقي فيه خطابًا أمام الجالية اليهودية في المدينة، التي كانت في حالة احتفال، وكنَّا في حالة يُرثَى لها، وحاولنا أن نحافظ على كرامتنا والتفكير في كيفية التغلب على هذه الهزيمة، ولكن تأثيرنا في الجامعة كان ضعيفًا جدًّا، ومع ذلك، فقد كانت تجربة مفيدة

جدًا، استفدت منها عندما كنت مسؤولًا حكوميًا، وعندما تفاوضت مع الأمريكيين؛ إذ علمتني طريقة تفكيرهم.

أشعرني كل ذلك بأننا نحن السعوديين لا يمكننا الاعتماد على الآخرين، وأننا يجب أن نعتمد على أنفسنا، وسيحترمنا الآخرون فقط عندما نكون أقوياء داخليًا، ولا نعتمد على مساعدة الآخرين، ومن ثم وجب علينا تقوية اقتصادنا، وإعادة اكتشاف قيمنا وعناصر قوتنا الداخلية، والتمسك بكل ذلك.

ساعد دور الزامل في الرابطة على اكتسابه مهارات قيادية وإستراتيجية قيِّمة، وكانت المرحلة التي أثرت في تفكيره تأثيرًا كبيرًا، وكوَّن الزامل علاقة جيدة مع غازي القصيبي؛ نظرًا لعمله نائبًا له في رئاسة الرابطة، وكان القصيبي قد بدأ حياته المهنية الحكومية البارزة بصفته أول وزير للصناعة والكهرباء، وفي تلك الأثناء رشَّح الزامل لذاك المنصب، ولأكبر المهمات تحديًا في حياته المهنية. يقول الزامل عن ذلك:

لم أكن مميزًا في البحرين، ولكنني كنت مميزًا في الولايات المتحدة، لقد كان النظام التعليمي هناك يشجِّعك على الفهم، فلم أكن أرغب في البقاء هناك للحصول على درجة الدكتوراه؛ لأنه لم يكن لدي رغبة في العمل الأكاديمي، ومن ثَم كانت شهادة الماجستير كافية تمامًا في المجال الهندسي، ويُنصَح دائمًا بالحصول على بعض الخبرة العملية قبل الحصول على شهادة الدكتوراه.

كانت الدراسة في الولايات المتحدة تجربة ثرية جدًا، منحتني التصميم على فكرة أننا قادرون على الإنجاز في المملكة العربية السعودية، ولقد كانت كاليفورنيا مختلفة تمامًا، ولعل الشيء الوحيد المؤسف بالنسبة إلى تجربتي في أمريكا هو أنها أفسدت لغتي الإنجليزية الممتازة التي تعلمتها في بريطانيا!

* * *